الطفولة في أدب الجاحظ

المدرس الدكتور
ستار عبد الله جاسم
المدرس الدكتور
ظاهر محسن جاسم
جامعة الكوفة - كلية الآداب

الطفولة في أدب الجاحظ

المدرس الدكتور
ستار عبد الله جاسم
المدرس الدكتور
ظاهر محسن جاسم
جامعة الكوفة - كلية الآداب

توطئة:

لا شك في أن الطفولة - بوصفها مرحلة ذات أهمية كبرى من مراحل الإنسان - لم تحظ بالقدر الذي يوائم تلك الأهمية في التراث الأدبي العربي القديم ،وإنما كان الاهتمام منصبا على مراحل عمرية أخرى ولاسيما الشباب منها وبدرجة اقل الكهولة.

لكننا لا يمكن أن نعدم بعض الجهود التي تناولت بالدراسة هذه المرحلة العمرية بقدر وافر من الاهتمام،ومن ابرز هذه الجهود جهود أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ) الذي يعد ذا ثقافة ومعرفة موسوعية شاملة بكل ما يعنيه هذا المصطلح من معنى،فقد تناول الجاحظ المجتمع من زوايا مختلفة وفي مستويات عدة .فقد تكلم على الإنسان طفلا ورجلا وتكلم على الإنسان مهنة كالمعلمين والسلاطين والتجار والكتاب وغيرهم ...وتكلم على الإنسان عرقا ، وتكلم على الإنسان مزاجا وميلا كالبخيل والكريم والنمام لذلك يمكن من الدراسات الحديثة في مختلف حقولها المعرفية والنفسية والاجتماعية والعلمية والفكرية...وما إلى ذلك يمكنها أن تفيد مما تحتويه آثار الجاحظ من علوم مختلفة و وقافات جادة على تلك العلوم ونظرات نافذة إلى جوهر النفس الإنسانية وذلك كله يمكن أن يرصد من المعنيين والمختصين في سائر أنماط المعرفة.

و ما يهمنا في هذا البحث هو أن نكشف عن جانب الطفولة التي أولاها الجاحظ عنايته لما لها من اثر في تكوين شخصية الإنسان.لقد تناول هذه الجوانب بأسلوب أدبي سردي مسلطا الضوء على الجوانب الايجابية والسلبية التي قد يتعرض لها الطفل في مراحل طفولته. وقد جاءت مبثوثة في كتبه ورسائله فحاول البحث رصدها وتناولها بالبحث والاستقصاء.

المبحث الأول

قضية النطق عند الطفل

تعد قضية النطق عند الطفل من القضايا المركزية التي تشغل حيزا مهما في الدراسات العلمية والنفسية والاجتماعية واللغوية... إلى غير ذلك.ويبدو أن الجاحظ قد أحس بهذه الأهمية وهو يعيش النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة أي أن له فضل السبق في ذلك فبحث قضية النطق عند الطفل من زوايا كثيرة(١) ، فقد أكد الجاحظ أن ((الميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال،كقولهم: ماما،وبابا لأنهما خارجان من عمل اللسان،وإنما يظهران بالتقاء الشفتين))(٢).وهذا ما أكّد عليه علماء الأصوات القدماء والمحدثين في أن الطفل يبدأ النطق بما يسهل عليه من الأصوات،و

قد ((اعتبروا الأصوات الشفوية كالباء والميم من أوائل الأصوات التي يستطيع الطفل النطق بها وعللوا هذا بان الطفل يرى حركة الشفتين حين يسمع هذه الأصوات من أمه وأبيه)) (٣).

ويشير الجاحظ إلى مرحلة من المراحل التي يمر بها الطفل في أثناء تعلمه نطق الأصوات اللغوية وهي تسبق بقليل مرحلة الاستقرار اللغوي لدى الطفل إذ يشوب نطقه الأصوات بعض الاضطراب أو اللثغة(٤) كما يسميها الجاحظ، وهذا الاضطراب ينشأ نتيجة عدم اكتمال النشأة،يقول في ذلك: ((والذي

يعتري اللسان مما يمنع من البيان ، أمور منها:اللثغة التي تعتري الصبيان إلى أن ينشئوا وهو خلاف ما يعتري الشيخ عند الهرم الماج المسترضي الحنك،المرتفع اللثة ،وخلاف ما يعتري أصحاب الكلف من العجم،ومن ينشأ من العرب مع العجم)) (٥)وهنا يفرق الجاحظ بين أنواع اللثغة التي تعتري لسان المتكلم وهو يؤكد أن لثغة الطفل إنما سببها عدم اكتمال جهاز النطق لديه، أما لثغة الشيخ الهرم فسببها الوصول إلى مرحلة من العمر لم تستطع بعض لوازم جهاز النطق لديه أن تقوم بعملها على أكمل وجه،وهذه الحال بدورها تختلف عن لثغة أصحاب اللكن من العجم أو من ينشأ من العرب مع العجم إذ إن سبب هذه اللثغة يعود إلى أن هؤلاء لم يعتادوا على أداء أصوات الحروف بشكل صحيح إلى أن استقرت ألسنتهم على ذلك الأداء غير الصحيح للحروف العربية لذلك ثمة صعوبة كبيرة في تصحيح هذا لأداء لديهم ويتطرق الجاحظ لذلك بقوله : ((ألا أن السندي إذا جلب كبيرا فانه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عليا تميم وفي سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاما)) (٦).

ومما يدخل في قضية النطق عند الأطفال تسميتهم للأشياء حولهم بأسماء تعتمد الجانب الصوتي المشابه لأصواتها مثل تسمية الحيوانات بالأصوات التي تصدرها ،وقد أشار الجاحظ إلى ذلك قائلا: ((والصبيان هم الذين يسمون الشاة ماه،كأنهم سموها بالذي سمعوه منها،حيث جهلوا اسمها...وقيل لصبي يلعب على بابهم:من أبوك يا غلام وكان اسم أبيه كلبا ،فقال:وو وو)) (٧) .وكأن الطفل في هذه المرحلة يحاول أن يصدر أصواتا يحاكي بها أصوات الحيوانات و الأشياء و((تعتمد هذه الأصوات على استعداد فطري عند الطفل ،وهو غريزة المحاكاة، لكنها مع ذلك تصدر بشكل إرادي ويرمي الطفل من ورائها إلى غايات معينه.فهو يرمي أحيانا إلى مجرد التلذذ بالمحاكاة أو إثبات

قدرته على التقليد وأحيانا إلى التعبير عن أمور تتصل بالشيء أو بالحيوان)) (٨).

ويشير الجاحظ إلى بعض الوسائل التي تساعد الطفل على تأدية بعض التمارين الصوتية التي تفيد تحسين أداء جهاز النطق لديه ولعل الاعتماد على الإثارة البصرية بدلا من الإثارة السمعية له اكبر الأثر في تشجيع الطفل على أداء بعض التمارين الصوتية يقول: ((وللنار من الخصال المحمودة أن الطفل لا يناغي شيئا كما يناغي المصباح،وتلك المناغاة نافعة له في تحريك النفس وتهيج الهمة،والبعث على الخواطر وفي فتق اللهاة وتسديد اللسان في السرور الذي له في النفس اكبر اثر)) (٩)ونلمح في قول الجاحظ هذا ربطا مهما بين الحالة النفسية(السيكولوجية)وجهاز النطق التشريحي(الفسيولوجي) وهي التفاتة ذكية من الجاحظ.

ويرى الجاحظ أن الضحك والبكاء مفيدان للأطفال من نواح كثيرة نفسية وجسدية بما فيها إفادة جهاز النطق من ذلك قوله : ((وكيف لا يكون موقعه من سرور من سرور النفس عظيما من مصلحة الطباع،وهو شيء في أصل الطباع في أساس التركيب لان الضحك أول ما يظهر من الصبي،و به تطيب نفسه وعليه ينب شحمه ويكثر دمه الذي عليه سروره ومادة قوته)) (١٠) وما دام العضو الذي يصدر عنه الضحك مباشرة هو الفم وما يحيط به فان بعث النشاط، ما له اثر في تنشيط جهاز النطق،وهذا ماله علاقة بحالة الأطفال التي وقف عندها الجاحظ فروى قولا لرجل يؤكد بكاء الطفل إذ قدموا رجلا إلى عبد الملك بن مروان لتضرب عنقه ودخل على عبد الملك ابن له صغير قد ضربه المعلم وهو يبكي فهمَّ عبد الملك بالمعلم ،فقال له الرجل:دعوه فانه افتح لجرمه واصح لبصره،واذهب لصوته (١١)، وقد اثبت العلم الحديث أن ثمَّة

فائدة لبكاء الطفل من جوانب كثيرة.وقد تنبه الجاحظ إلى تأدية تمرين الأداء الصوتي عند الأطفال له فائدة في تحسين النطق لديهم وان العرب قد أولت هذا اللون من الدربة عناية كبرى إذ يرى الجاحظ أنهم ((كانوا يروون صبيانهم الأراجيز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب لان ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم، واللسان إذا كثرت تقليبه رق ولان وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكانه حبس وغلظ)) (١٢)وفي هذا القول جملة أمور نوجزهاا بنقاط هي:

١. إن ثمَّة تركيز كبير على الجهد الصوتي؛ هو موجه بالدرجة الأساس إلى مرحلة الطفولة بوصفها المرحلة الأمثل للتكليف مع ما مر من تدريب وتثقيف يتصل بأهم وسائل البيان ألا وهو جهاز النطق.
٢. إن الأمثلة والنصوص التي هي ميدان هذا التمرين ليست من الكلام النثري الاعتيادي وإنما كان التأكيد على الارجاز، والرجز حالة تختلف عن بحور الشعر الأخرى إذ فيه زخم صوتي شديد ومتلاحق عن طريق تكرار تفعيلة(مستفعلن)ست مرات لذا كان مناسبة لأجواء الحماسة وهذا يجعل أداء الرجز الصوتي بمثابة تمرين قوي لجهاز النطق عند الطفل.فضلا عن سهولة الوزن وخفته في الأراجيز يعين على حفظها وروايتها.
٣. إن هناك تأكيد على رفع الصوت وهذا بدوره يعني تحريك كل مفاصل عملية النطق بقوة وبشدة الأمر الذي يعضد جهاز النطق ويقوي أجزاءه.
٤. نلحظ عنايته الى الحث على تحقيق الإعراب وهذا يعني أن القوة المطلوبة في الأداء ليست على حساب الدقة المبتغاة.فضلا عن إسهام الإعراب وأداء الحركات الصائبة في وضع اللسان على جادة إتقان اللغة العربية ونطقها نطقا صحيحا.

المبحث الثاني

تربية الطفل وتعليمه

تعد الثقافة التربوية والتعليمة من أهم أنماط الثقافات التي لا غنى لكل مجتمع عنها،فهي ضرورة لبناء جوانبه كافة(١٣)لأنها في الأصل نتيجة لمرحلة الطفولة التي هي غرس للمستقبل.فينبغي سلوك أفضل الطرق في التعامل مع هذه المرحلة.

ومما وقف عليه الجاحظ في تربية الطفل في هذه المرحلة انه يرى أن الفرق بين الطفل والرجل الناضج في عصور الأزمات الفكرية وتبدل العقائد الموروثة هوان الطفل يستلم ما يسود في البيئة في نظام بذهن مستقر على العكس من الرجل الناضج الذي يعاني التحول النفسي تحت النظام الجديد(١٤)وفي ذلك يقول : ((وصاحب التربية يبلغ حين يبلغ وقد اسقط الله عنه مؤونة الروية والخطار بالجهالة وقد أورثه الألف والسكون وكفاه اختلاج الشك واضطراب النفس وجولان القلب)) (١٥)لكننا على أية حال لا يمكننا أن نتفق مع الجاحظ بصورة كلية في رأيه هذا لان الطفل إذا لم يتأثر عقائديا أو فكريا بالعصور غير المستقرة التي مرت فيها طفولته فانه سيتأثر نفسيا بذلك.

وللجاحظ وقفات كثيرة في قضايا تتصل بتعليم الأطفال وبطرق المعلمين والمعلمين انفسهم،فمن حيث التعليم يرى الجاحظ أن مستوى النمو الطبيعي للأطفال ما بين السابعة والتاسعة من العمر وهذا النمو يكون جسديا وعقليا وعلى مستو واحد إلا إذا كان الطفل ظاهرة خارقة للعادة في ذكاءه وقدرته،يقول: ((وما شاهدنا عليه من طباع الأطفال وجدنا حكم ابن سبع سنين أو ثماني سنين وتسع سنين حيث قرأناه وبلغنا خبرهما لم يعلم مغيب أمره وخاصة طباعه ـ حكم الأحكام وليس نزيل ظاهر حكمه عنده على مجرى أمثاله وأشكاله)) (١٦)وهذا الرأي للجاحظ إنما هو مبني على تجربة وخبرة

يتضح من خلاله إلى أن كل طفل في هذه المرحلة العمرية المبكرة إذا أحس بتكافؤ الفرص العلمية والعقلية مع أقرانه فإنه سيقدم أفضل ما عنده.

ولا يفوت الجاحظ أن يركز على قابلية الطفل على الحفظ وقدرة المعلم على التلقين قائلا: ((ولعمري إنا لنجد في الصبيان من لو لقنته وسددته أو كتبت له أغمض المعاني وألطفها واغوص الحجج وأبعدها،وأكثرها لفظا وألطفها واطلها،ثم أخذته بدرسه وحفظه لحفظه حفظا عجيبا،ولهذه هذا ذليقا)) (١٧)لكن الجاحظ يستدرك بان هذا الحفظ لا يعني فهم الطفل وإدراكه لما يحفظ ولذلك نراه يقول : ((فإما معرفة صحيحه من سقيمه وحقه من باطله وفصل مابين المقرب والدليل والاحتراس من حيث يؤتى المخدوعون والتحفظ من مكر الخادعين وتأني المجرب ورفق الساحر،وخلابة المتنبئ وزجر الكاهن وأخبار المنجمين وفرق مابين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه فليس يعرف النظر،واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من الرجز والمخمس من الأسجاع والمزدوج من المنثور،والخطب من الرسائل وحتى يعرف العجز الظاهر الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات...وهذا مما لا يوجد عند صبي ابن سبع سنين وثماني سنين وتسع سنين أبدا)) (١٨).

ويتجه الجاحظ إلى محاولة وضع اليد على بعض القدرات للناشئة، وهو أكثر ميلا إلى وصف الناشئ بالقدرة الفنية منه إلى وصفه بالقدرة التحليلية أو التوجه العلمي(١٩) ويضرب مثالا على ذلك من البيئة اللغوية والأدبية ، يقول : ((وقد تجد الصبي الذكي الذي يعرف من العروض وجها ومن النحو صدرا ومن الفرائض أبوابا ومن الغناء صوتا)) (٢٠)وفي ذلك إقرار ضمني بأن((قدرة الخيال والعاطفة عند الطفل هما اللتان تتغلبان وان القدرة العقلية إنما تكون قدرة تالية يترك لها مجال التفتح بعد النضج والدراسة ونمو الحاسة

النقدية)) (٢١) و يؤكد الجاحظ هذا المعنى بقوله المكمل للقول الأنف قائلا: ((فأما العلم بأصول الأديان ومخارج العلل وتأويل الدين والحفظ من البدع وقبل ذلك،الكلام في صحيح المنقول والتعديل والتحوير والعلم بالأخبار وتقدير الأشكال فليس هذا موجودا إلا عند العلماء)) (٢٢).

والجاحظ يؤكد الأهمية الكبرى لتعليم الأطفال والناشئة ويرى أنها المرحلة التي عادة ما يستجيب فيها المتعلم(الطفل) لما يراد غرسه فيه من مواد علمية أو قيم أو سمات تسهم في أغناء شخصيته عند الكبر من أمثال ذلك قوله: ((سمع الأحنف رجلا يقول:التعليم في الصغر كالنقش في الحجر،فقال الأحنف:الكبير اكبر عقلا ولكنه اشغل قلبا)) (٢٣) .ويرى الباحثان أنّ هذا التعليل فيه قدر كبير من المنطق في أن الإنسان عندما يكبر وينضج عقله وكلت قدرته على الحفظ تنخفض إلى حد ما.

ويحتل حقل اللغة والأدب مكانة أثيرة في تعليم الأطفال عند الجاحظ ولعل مرجع ذلك يعود إلى جملة من الأسباب أهمها:

١. إن اللغة والأدب هما ابرز الحقول المعرفية عند العرب يومئذ،لذا كان التأكيد على أن يبلغ الطفل حظا وافرا فيهما بما يؤهله للبروز، إذ يحث الجاحظ من خلال هذا القول المأثور- الأنف الذكر- على تعليم الأطفال منذ الصغر لأن عقولهم منفتح لاكتساب العلوم لخلوها من هموم الدنيا في تلك البيئة .
٢. إن اللغة والأدب مما يعين الطفل على الجرأة في المجالات المعرفية الأخرى لان اللغة هي وسيلته التعبيرية عما يريده في علم من العلوم أو أي معرفة من المعارف لذا نلمح الأسلوب الأدبي الرفيع شائعا ليس بين رجال اللغة والأدب فحسب بل عند المعنيين بالمعارف الأخرى مثل كتاب التاريخ.

ومن مظاهر اهتمام الجاحظ بعملية التعليم ما أوصى به معلمين الأطفال والناشئة في ضرورة الابتعاد في تعليم اللغة والأدب عن التعقيد والتكلف ومحاولة التركيز على كل ما يفيد الطفل في قابل أيامه،يقول في ذلك : ((وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه،وشعر أن أنشده وشيء وصفه وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به،ومذهل عما عليه منه من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع)) (٢٤)وكان الجاحظ هنا يؤكد قضية أثيرت في العصر الحديث وكثر عنها ألا وهي قضية تيسير النحو للناشئة،والحق يعد الجاحظ من السابقين في تشخيصه لسلبيات التعقيد في مسائل النحو بما يسبغ حالا من الجفاف والتكلف فيه وابتعاد كثير من المتعلمين عنه.

ثم يوصي الجاحظ المعلمين بضرورة توخي الحذر في تعليم المسائل البلاغة للناشئة، وبضرورة اعتماد السهولة والإيجاز وحسن تأدية المعاني، إذ يوصي كل معلم عند تعليم الطفل الناشئ بأن يأخذ((بتعريف حجج الكتاب وتخصهم باللفظ السهل القريب المآخذ إلى المعنى الغامض،وأذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلف واستكراه العبارة،فان أكرم ذلك كله ما كان إفهاما للسامع ولا يحوج إلى التأويل والتعقب ويكون مقصورا على معناه لا مقصرا عنه ولا فاضلا عليه)) (٢٥)وهنا نلحظ أن الجاحظ يؤكد على ضرورة المواءمة بين اللفظ والمعنى وتوخي الإيجاز والتشجيع على الأداء بما يفهم السامع أن المتلقي له حظوة كبيرة في عملية الخطاب.ويؤكد الجاحظ حين يورد صحيفة بشر ابن المعتمر(ت٢١٠هـ) ما فيها من وصايا أدبية للفتيان، وذلك ما نلحظه في قوله: ((مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن محرم السكوني الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة،فوقف ليستفيد أو ليكون رجلا

من النظارة،فقال بشر:اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا .ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه،وكان أول ذلك الكلام:اخذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها ياياك...قال بشر فلما قرأته على إبراهيم قال:أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان)) (٢٦) وإذا كان إيراد الصحيفة كاملة غير ممكن لعدم تناسبها وطبيعة البحث إلا أن ما فيها من وصايا أدبية تنسجم مع ما يتبناه الجاحظ في التعليم.

وقد بين الجاحظ أهمية السلوك الفعلي الذي يمارسه المعلم أمام التلاميذ ولاسيما الأطفال ،إذ إن ذلك له بالغ الأثر في شخصية التلميذ ومدى انجذابها إلى شخصية المعلم ،وفي ذلك يروي الجاحظ قول احدهم لمؤدب ابنه: ((ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك،فإن أعينهم معقودة بعينك،فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت،علمهم كتاب الله ولا تكرهم عليه فيملوه،ولا تكرهم منه فيهجروه،ثم روهم من الشعر أعفه،والحديث أشرفه،ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم،وعلمهم سيرة الحكماء وأخلاق الأدباء)) (٢٧) يوصي الجاحظ المعلم إن يصلح نفسه أولا لأنه قدوة لتلاميذه فان رأوه يعلمه متمسكا بما يقوله تأثروا به وطبع سلوكه في نفوسهم وان هو كالداعي بلا عمل ذهب نصحه وتعليمه أدراج الرياح،فضلا عن حرصه في تعليم القرآن الكريم في مرحلة عمرية مبكرة فلا إكراه ولا ترك ولكل أسلوب منهما عواقبه غير المحمودة.أما الرواية فيحبذ فيها كل ما هو شريف وعفيف وما ناسب مع مستوى التعليم،يقول: ((وتهددهم بي وأدبهم دوني،وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء،ولا تتكل على عذري،فإني قد اتكلت على كفايتك،وزد في تأديبهم أزدك في بري أن شاء الله))

(٢٨)والحق أن ذلك منهج متميز في التربية والتعليم، فالرجل يوصي معلم أبنائه بالشدة الحميدة التي تمكّن المعلم من تصحيح الأخطاء التي شخصت من قبل، وهو ما يمكن أن نسميه الحزم الذي هو من لوازم العملية التعليمية.

أمَّا ما يتصل بالمعلمين أنفسهم فلم يتخذ الجاحظ موقفا سلبيا إزاء المعلمين جميعهم ،ولكن هو ميز بين مستويين من التعليم هما؛الجيد و الرديء،يقول عن بعض المعلمين: ((وهؤلاء هم الذين هجوتهم وشكوتهم وحاججتهم ،وألزمت الأكابر ذنب الاصاغر وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصرين ورثيت لآباء الصبيان من إبطاء المعلمين عن تحديقهم،ولم نرث للمعلمين إبطاء الصبيان عما يراد بهم،والمعلمين أشقى من الصبيان من رعاة الضأن و رواض المهارة)) (٢٩)وهذا الكلام لا يدل على ذم الجاحظ مهنة التعليم أو المعلمين وإنما هو سدد سهامه وانتقاداته إلى صنف من المعلمين ومنهج رديء في التعليم لا يحمل صاحبه الجدية المطلوبة ولا الأسلوب الصائب في التعليم .وهو يتضمَّن نمطا من أنماط الحثّ والتوجيه للمعلمين لتحمل أعباء المسؤولية الكبيرة التي انيطت بهم،وهي تربية الأجيال وتعليمهم.وتكلم الجاحظ على بعض الدوافع التي تحفِّزُ التلميذ ولاسيما الطفل وتأخذ به نحو طلب العلم والمعرفة وهذه الدوافع تتصل بنفسية الطفل فينبغي على المعلم أن يحرص على مراعاتها والتعامل معها بما يخدم العملية التعليمية ويحقق أهدافها. يحقق الغاية التي جاء من اجلها ويؤكد الجاحظ أهمية الحال النفسية لطالب العلم قائلا: ((متى ثقل الدرس تثاقلت النفس وتقاعست الطبيعة،ومتى دام الاستثقال احدث الهجران،وإذا تطاول الكدر سخ الزهد،وفي ترك النظر عمى البصر)) (٣٠) وينتقد الجاحظ تركيز بعض المعلمين على تكليف التلاميذ بالحفظ الكثير على

حساب الفهم والإدراك لان منهج الحفظ الكثير ليس أمرا حميدا في التعليم يقول: ((والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط،ومتى أدام الاستنباط اضر ذلك بالحفظ)) (٣١) والحق أن الجاحظ هنا إنما يقدم رؤية تعليمية على قدر كبير من الأهمية، تسعى هذه الرؤية إلى ضرورة أن يوازن المعلمون في تعليمهم للتلاميذ بين الحفظ والفهم وان لا يطغى احدهما لان ذلك سوف يكون على حساب الآخر،وهي دعوة من الجاحظ إلى التنوع في طرق التعليم بما يحقق التفاعل المطلوب بين المعلِّم والمتعلِّم.ومما تجدر الإشارة إليه أن أسلوب التركيز على جانب الحفظ، له تداعيات سلبية خطيرة على العملية التعليمة أبرزها:

١. انعدام التكيف النفسي مع الدرس،ومحاولة اصطناع الأعذار في سبيل الابتعاد والهرب منه.
٢. ضعف مستوى الفهم والتحليل والاستنباط لدى التلاميذ بسبب من قلة الدربة لديهم في هذا الجانب.
٣. استهلاك الزمن المخصص للعملية التعليمية في التركيز على مستوى واحد مما يحول دون تنمية المستويات العقلية الأخرى للتلميذ؛ لأن الحفظ يأخذ وقتا اكبر مما يأخذه الفهم والاستنباط سواء أ كان ذلك بالمذاكرة أم في الاختيار.
٤. إن الجهد الذي يبذل في التركيز على الحفظ سيكون اكبر بكثير من الجهد المبذول في الفهم فضلا عن أن ذلك لا يقود إلى نتيجة تنسجم ومقدار الجهد،وهذا يحفزنا على التركيز على الجانب النوعي في الجهد وليس الكمي.

المبحث الثالث

نقد استغلال الأطفال:

إن مرحلة الطفولة من المراحل التي تحتاج إلى مزيد من الحب والحنان ومشاعر الود التي ينبغي أن يشعر بها الطفل ،ويفترض أن تصبح تلك المشاعر سائدة في كل ما يحيط هذه المرحلة العمرية(٣٢)،ومن ثم يصبح الطفل محط

عناية الجميع ورعايتهم واهتمام والسعي بكل ما يسهم في تقوية عوده والشد من أزره وتحسين أدائه من النواحي كافة،وبالمقابل الوقوف بوجه كل من يحاول أن يستغل الأطفال أو يؤذهم أو يقف في طريق تعلمهم وحرمانهم من ابسط حقوقهم الإنسانية.

لقد كان الجاحظ ذا صوت عال رافض لكل مظاهر استغلال الأطفال، إذ انه اطلع عن كثب على طرق استغلال الأطفال وجعلهم وسيلة من وسائل كسب المال الحرام،وكان ((يحزنه إيذاء هذه المرحلة البريئة بالقسوة ويشير إلى استحدث العلل والتشويه في خلقة الطفل لغرض استخدامه في الكسب واستعباد طفولته في مصلحة الكبار وأشار إلى شخصية(المشعب) الذي يعمل في استحداث هذه العلل لغرض استغلال الأطفال في الكدية،وأشار بازدراء واحتقار إلى الوالدين اللذين يرتضيان لنفسيهما التخلي عن رعاية طفلهما البريء في سبيل الكسب الحرام))(٣٣)لان خطر ذلك العمل وعواقبه وخيمة جدا على المستويات كافة العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية والنفسية وغيرها،للجاحظ نصوص عديدة يكشف فيها عن هذا السلوك غير السوي من ذلك قوله ((فأما الذي يجعل أولاد المكدين عميانا وعرجانا وعمشا وحدبا فهو يسمي(المشعب) فلا ادري أيهم أعظم كفرا واقسي قلبا: الآباء أو الأمهات الذين يسلمون أولادهم إلى المشعب الذي ترك كل صناعة في الأرض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبه الذي لا يفارقه.وأنا رأيت من هذا الصنف جماعة قد ازمنوا أولادهم وكتبت عنهم تصنيف المكدين)) (٣٤) ونلحظ أنَّ الجاحظ هنا يعبر عن استنكاره واستغرابه وعجبه من هذه الطباع الغريبة والقسوة العجيبة فيحار في أيهما أعظم جرما هل هم الآباء والأمهات أو المشعب الذي امتهن هذا الجرم الشنيع.

والحق أن مناهضة الجاحظ لمثل هذه الأفعال الإجرامية بحق الطفولة البريئة إنما تمثل علامة ايجابية في أدب الجاحظ إذ كان بمثابة الشاهد والمستنكر في

الوقت نفسه،لأنه كان ذو دراية بما يحصل في مجتمعه من ظلم وتعسف بحق الأطفال .

فكان يسعى للكشف عنها في آثاره بما أوتي من رقة العبارة وجمال الأسلوب مما يدلل على درايته وخبرته ومعرفته بأحداث مجتمعه من حيث استغلال الأطفال من (المشعب)،ذلك المرء الذي لا يمت بصلة إلى الإنسانية، يقول واصفا بعض تفاصيل ذلك لاستغلال البشع((والمشعب الذي يحتال للصبي حين يولد بان يعميه أو يجعله اعسم أو أعضد ليسال الناس به وربما جاءت به أمه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل لأنه يصير حينئذ (عقدة أو غلة) فإما أن يكسبا به وإما أن يكرياه بكراء معلوم وربما اكروا أولادهم ممن يمضي إلى افريقية فيسال بهم الطريق اجمع بالمال العظيم أن كان مليئا وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلا)) (٣٥)إن هذه التفاصيل التي يوردها الجاحظ تدل على أن هناك احتراف كبير في قضية إيذاء الأطفال وصنع الإعاقة التي توافق رأي المشعب أو ذوي الأطفال، ويصل إلى حد تجارة هؤلاء المعاقين وإرسالهم إلى مختلف الأمصار والبلاد بهدف جمع الأموال الحرام.

المبحث الرابع

اثر الحكاية الخرافية والقص الشعبي في نفسية الطفل:

مما لاشك فيه أن للحكايات الخرافية والقصص بوجه عام،أثرا كبيرا في نفسية الطفل ،وقد وقف علماء النفس عند اثر تلك الحكايات فحذروا من الخيال البعيد عن الواقع، على الرغم من إيمانهم من أهمية الخيال في تطوير عقل الطفل،كما ربطوا بين الأساطير والقصص وحكايات العجائز وكذلك أحاديث السمر من جهة وبين قصص الخيال العلمي من جهة أخرى ،وكان يكمن تحذيرهم من مثل هذا اللون من القصص هو ما تسببه للأطفال من رعب وخوف يتجسد أكثر ما يتجسد في النوم المضطرب المصحوب بالأحلام

المخيفة،فضلا عن أحوال نفسية أخرى كالشعور بعدم الثقة بالنفس وبالآخرين(٣٦).

والجاحظ من الذين تأثروا بالحكايات الخرافية،ولاسيما ما تشتمل عليه من أمور مخيفة ومرعبة،من ذلك حديثه عن خوفه عندما كان طفلا من الخفافيش بسبب ما استمع إليه من حكايات النساء عن هذا الطائر الغريب،يقول: ((وأما أقوال النساءوأشباه النساء في الخفافيش فأنهم يزعمون أن الخفاش إذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي،فما أنسى فزعي من سن الخفاش ووحشتي من قربه،إيمانا بذلك القول إلى أن بلغت ...وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافات)) (٣٧). إن ما يعنينا ـ هنا ـ أن الجاحظ لم يرو هذا الحكايات على سبيل التنظير أو أن روايتها حصلت مع شخص صغير أو كبير غيره،وإنما هي قد رويت له شخصا عند ما كان طفلا،وهنا تأتي أهمية هذه الحادثة،فضلا عن أن الأسلوب السردي لها كان يروي فعل هذه الحادثة ـ وهو عض الخفاش ـ وقد وجه نحو صبي وكأن هذا الخفاش الغريب يرصد الأطفال في عضه الأمر الذي يزيد من رعب الأطفال بسبب هذه الحكاية.

وثمة أمر يكثر في هذه الألوان من الحكايات وهو حضور الطفل فيها سواء في مضمونها أم في الخطاب فيها يتم توجيهه إلى الأطفال عادة،ولعل السبب في حضور الطفل في المضمون أنما يعود إلى ترغيب الأطفال في الاستماع والإصغاء لها أما المسوغ في كثرة توصية هذه الحكايات إلى الأطفال وفي كون الطفل عادة يكون الطرف المتلقي أو المرسل إليه فان ذلك لربما يعود أن الأطفال لا يترددون في قبول الخيال والخرافة التي تتصف بها تلك الحكايات ،بل على العكس من ذلك إذ تصبح من عناصر التشويق فيها.

والجاحظ يملك ذاكرة عجيبة عن طفولته ،ويستطيع أن يسرد بعض الحوادث التي شاهدها وهو طفل سردا قصصيا دقيقا على الرغم من وصوله

إلى سني حياته الأخيرة بعد أن كتب كتاب الحيوان ،ومن أمثلة ذلك سرده لحادثة حدثت لأحد الأطفال من رفاقه عند ما كان في الكتاب إذ هاجم كلب ذلك الطفل فعضه ولكن الطفل لم يصب بداء الكلب بحسب ما كان متوقعا،والجاحظ يذهب بذاكرته إلى حيث تلك الطفولة فيبدأ سردا قصصيا حيا قائلا: ((وأنا حفظك الله تعالى ـ رأيت كلبا مرة في الحي ونحن في (الكتاب) فعرض لي صبي يسمى مهديا من أولاد القصابين،وهو قائم يمحو لوحه فعض وجهه فنقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى،فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده فرمى به ملقيا على وجهه وجانب شدقه.وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ما ضننت انه ليعيش معه)) (٣٨) وهذا الوصف القصصي تبرز فيه الدقة بشكل واضح من حيث تفاصيل الحدث ووصف الأشخاص والزمان والمكان وصفا تتآزر فيه الذاكرة مع جودة السبك والأسلوب ولا يكتفي الجاحظ بوصف ما هو مادي ظاهر فحسب بل يتجاوز ذلك إلى وصف المشاعر والأحاسيس عن طريق استمراره في سرد قصته الواقعية قائلا: ((وبقي الغلام مبهوتا قائما لا ينبس واسكنه الفزع وبقي طائر القلب،ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد بشهر وقد عاد إلى الكتاب وليس في وجهه التشتر إلا موضع الخيط الذي خيط.فلم ينبح إلى أن برئ ولا هر ولا دى بماء...)) (٣٩)وهذا كله لا يدل على أن للجاحظ ذاكرته عجيبة تمتد إلى زمن الطفولة فحسب بل يدل أيضا على أن طفولة الجاحظ التي عاشها لم تكن مرحلة منفصلة عن مراحل حياته الأخرى وإنما كانت حاضرة بكل حيويتها في تلك المرحل.

ملخص البحث:

مباحث: الأول: قضية النطق عند الطفل. والثاني: تربية الطفل وتعليمه. والثالث: استغلال الأطفال ،وأخيرا الرابع كان في اثر الحكاية الخرافية والسرد القصصي في نفسية الطفل.فمن خلال تتبع آثار الجاحظ وجد الباحثان أن هناك

اهتماما كبيرا للجاحظ في عرض واستقصاء مشكلات الطفولة، من ذلك التفاته إلى فائدة التمارين الصوتية لتحسين أداء الطفل ومنها البكاء.كما كانت له وقفات على طرائق تعليم الأطفال وانتقاد بعض المعلمين الذين يميلون إلى التعقيد وكثرة الحفظ على حساب الفهم في تعليم اللغة والأدب.ولاحظ ومنذ زمن بعيد إنّ هناك من يستغل الأطفال لغرض الكدية وكسب المال الحرام ،فضلا عن وقوفه على ظاهرة نفسية هي خوف الأطفال من الشخصيات الخرافية في القصص التي ترويها العجائز عن الخفافيش والسعلات، وهذا يدل على أن طفولة الجاحظ لم تكن منفصلة عن مراحل حياته الأخرى بل كانت حاضرة بكل مراحل حياته الأدبية.

Abstract

This research aims to study the childhood in Al-Jahidh literature, it is divided in to four parts : The first deals with the vocalization of child, the second about the education and learning, the third in utilization of children, and the four about influence of the mythical story in the psychology of children, for example, he see that sound practice carry out to improvement of child utter. He have standing of children education and he criticizes the methods complex of some teachers when they teachings the language .Al-jahidh looked –since a long time-that some people utilization of children to get a money. At last we found that Al-Jahidh have a god memory it come from his childhood.

هوامش البحث

(١) ينظر:الجاحظ فكر ومنهج ،د.دود سلوم: ٤١.

(٢) البيان والتبيين ،الجاحظ: ٦٢/١.

(٣) الأصوات اللغوي،إبراهيم أنيس:١٤٤.

(٤) اللثغة في اللغة هي تحويل في اللسان من حرف إلى حرف ظ:لسان العرب مادة (لثغ).

(٥) البيان والتبيين ،الجاحظ: ٧٢/١؛ظ:البحث اللغوي عند الجاحظ،محمد عبد الزهرة:١٢٢،١٢٠.
(٦) البيان والتبيين ،الجاحظ: ٧٠/١.
(٧) الحيوان ،الجاحظ: ٨٨/٥.
(٨) علم اللغة،عبد الواحد وافي:١١٦.
(٩) الحيوان ،الجاحظ: ١١٩/٥.
(١٠) البخلاء،الجاحظ:٤٥.
(١١) البيان والتبيين ،الجاحظ: ٢٥٩/١.
(١٢) م،ن ،الجاحظ: ٢٧٢/١.
(١٣) ظ:في الثقافة التربوية النفسية: ٦.
(١٤) ظ:النقد المنهجي عند الجاحظ:٢١٦.
(١٥) العثمانية ،الجاحظ: ٢٢.
(١٦) م.ن: ٧؛ ظ: الجاحظ منهج وفكر:٤٢.
(١٧) م،ن: ١٥،١٦.
(١٨) م،ن: ١٦.
(١٩) ظ: الجاحظ منهج وفكر:٤٣.
(٢٠) العثمانية،الجاحظ: ١٧.
(٢١) ظ: الجاحظ منهج وفكر:٤٣.
(٢٢). العثمانية ،الجاحظ: ١٧.
(٢٣) البيان والتبيين ،الجاحظ: ٢٥٧/١
(٢٤) رسالة المعلمين ،رسائل الجاحظ: ٣٧/١.
(٢٥) م،ن: ٣٨/٣.
(٢٦) البيان والتبيين ،الجاحظ: ١٣٥،١٣٦.
(٢٧) م،ن: ٧٣/٢.
(٢٨) م،ن: ٧٤/٢.
(٢٩) كتاب المعلمين ،رسائل الجاحظ: ٢٨/٣.
(٣٠) في الجد والهزل،رسائل الجاحظ:٣٥/٣.

(٣١) كتاب المعلمين،رسائل الجاحظ: ٢٩/٣.
(٣٢) ظ:مفهوم الذات بين الطفولة والمراهقة :٦٠.
(٣٣) الجاحظ منهج وفكر،د.دود سلوم:٤٤.
(٣٤) البرصان والعرجان والعميان والحولان ،الجاحظ:٢٨٢،٢٨١.
(٣٥) البخلاء ،الجاحظ: ٥٢.
(٣٦) ظ:في الثقافة التربوية والنفسية:٥١،٥٠.
(٣٧) الحيوان ،الجاحظ: ٥٣٤/٣.
(٣٨) م،ن: ١٤/٢.
(٣٩) م،ن: ١٤/٢.

قائمة المصادر والمراجع

١. الأصوات اللغوية،إبراهيم أنيس،مكتبة الانجلو، المصر.
٢. البرصان والعرجان والعميان والحولان،الجاحظ،تح:عبد السلام محمد هارون،دار الطليعة،الجمهورية العراقية،١٩٨٢م.
٣. البحث اللغوي عند الجاحظ،محمد عبد الزهرة غافل،رسالة ماجستير،كلية الاداب،جامعة بغداد ،١٤١٢هـ -١٩٩١م.
٤. البخلاء،الجاحظ،تح:طه الحاجري،دار المعارف،ط٢،القاهرة.
٥. البيان والتبيين،الجاحظ،تح:عبد السلام محمد هارون،دارالجيل،بيروت(ب،ت)
٦. الجاحظ منهج وفكر،د.داود سلوم،ط١،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،١٩٨٩م.
٧. الحيوان،الجاحظ،:تحقيق عبد السلام محمد هارون،شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،ط٢،مصر.
٨. رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي،ط١،مصر،١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٩. العثمانية،الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون،مطابع الكتاب العربي بمصر،١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
١٠. علم اللغة،د.علي عبد الواحد وافي،مكتبة نهضة مصر للطبع والنشر،ط١٩٦٧،٤،٦م.
١١. في الثقافة التربوية والنفسية،د.نجاح هادي كبّه،ط١،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،٢٠٠٧م.

١٢. لسان العرب،ابن منظور،تحقيق:محمد عبد الوهاب؛محمد صادق العبيدي،دار احياء التراث العربي،مؤسسة التاريخ العربي ،لبنان،ط٣.
١٣. مفهوم الذات بين الطفولة والمراهقة،د.رعد الشيخ،ط١،دار كيوان،دمشق،٢٠٠٦م.
١٤. النقد المنهجي عند الجاحظ،د.داود سلّوم،عالم الكتب،مكتبة النهضة،ط٢،١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.